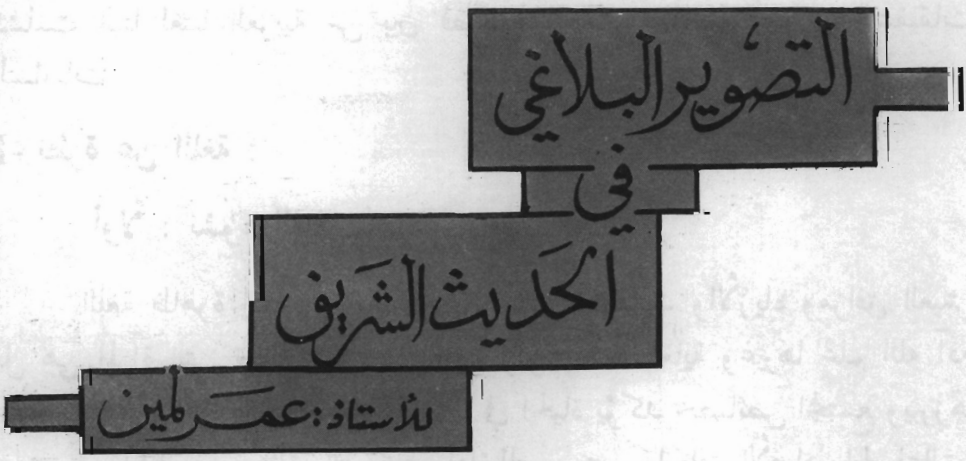

ان التصوير يعتبر الأداة التي تعطي للمعنى الذهني لونا محسوسا وللجامد صورة حية شاخصة : فبه يخرج الخفي الى الجلي ومعه يلبس المتخيل ثوب الحقيقي اذ ذاك تبلغ المعاني ويفهم المراد، وهذا لا يحْظى به الا المتضلع بلاغة وفصاحة وبيانا.

والرسول الكريم (ﷺ) وهو المأمور بالتبليغ والتبيين أوتي من كل ذلك، وذاك ما أذهل القارىء وحير السامع. فكان بذلك أعجوبة الزمان ومعجزة البيان لدى العربِ عامة، وعرب قريش خاصة ولا غرو في ذلك فربنا الذي يخلق ما يشاء ويختار الآمر له بالتبيين في قوله تعالى ﴿ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[1] هَيَّأ له ما تحقق معه التبليغ والبيان.

فان شئت فسل بيئته التي رأى النور فيها لأول وهلة وسلالته، معدن البلاغة ويم الفصاحة، وان شئت فسل فطرته، وتلمذته للقرآن الكريم المليء بيانا، كل ذلك جاءت معه بلاغته (ﷺ) ترفل في أثواب البيان والمعاني والبديع مما جعل التصوير يعقبه التقرير.

وهكذا وعلى ضوء هذه الفنون فإني سأعرج على بيانه الكريم بصور ونماذج عسى أن أكون موفقا في خطواتي هاته.

وبما أن اللغة تعتبر أداة هذا البيان فانه لا يكفي فيها المس الخفيف ولا الاشارة اليها بالتعريف من بعيد مما جعلني أعقد لها مبحثا خاصا لنعرف كيف

تسللت الينا لغتنا العربية من بين فصائل اللغات وخاصة أخواتها الشقيقات الساميات.

I- نظرة عن اللغة :

أولاً : نشوء اللغة :

اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية كالعادات والتقاليد والأزياء ومرافق العيش بل هي المرآة التي تعطى للشيء وجهه ولونه لهذه الغاية وغيرها علم الله آدم عليه السلام الأسماء كلها. أجل لا شيء في الحياة يؤكد خصائص المجتمع ويبرزها على وجهها الحقيقي كاللغة التي تعتبر أداة للتعبير عن حَاجَات الأفراد والجماعات.

وهكذا فقد أعتز، ومنذ القديم، كل مجتمع بلغته، وادعى قدمها وانها باقية بقاء الدهر. ومن ثم : قال الصينيون بقدم لغتهم، وانها صاحبة الشرف.

وزعم العبرانيون أن العبرية هي اللغة الأولى وأن الله علم آدم عليه السلام هذه اللغة الشريفة. وجاء الأراميون فنادوا بشرف لغتهم، وانها كانت لغة السيد المسيح عليه السلام وأمه العذراء وانها لغة الأسفار والمقدسة. واعتقد الاغريق أن لغتهم ذات شرف ومجد عظيمة وأنها لغة الحكمة ولماء جاء المسلمون بحثوا في العربية وأعجبوا بها وسحرتهم لغة التنزيل فكان ما كان من دراسات في مسألة الاعجاز، وجرتهم هذه الدراسات الى القول بأنها توقيفية والى هذا ذهب أحمد ابن فارس من أئمة اللغة في القرن الرابع معتمدا على قوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ مشيرا إلى قول لابن عباس مفاده، ان الله علمه الأسماء كلها - وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل واشْبَاهِ ذلك من الأمم وغيرها.

وأما أبو الفتح عثمان بن جني من علماء القرن الرابع الهجري فذهب الى القول بأن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف. هذه نشأتها وهذا الخلاف حولها.

ثانيا : فصائل اللغات :

ان الحديث عن الفصائل والتدرج يعرفنا كيف تسللت اللغة العربية الينا

وهكذا لاحظ العلماء مجموعتين هامتين : الهندية والسامية.

1) **الفصيلة الهندية الاوربية** : وهذه أكثر اللغات انتشارا، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر في الحضارة الانسانية، وموطنها الأصلي قيل في آسيا الوسطى وقيل في المناطق الروسية : وتشمل ثمان طوائف من اللغات :

الآرية ــ اليونانية ــ الايطالية ــ الجرمانية ــ السَّلافية ــ الالينية ــ الكيلنية.

2) **الفصيلة الحامية : السامية : وهي ذات مجموعتين :**

أ ــ **مجموعة اللغات الحامية** : وتشمل :

ــ المصرية : القديمة والقبطية :

ــ البربرية : وهي لغة السكان الأصليين لشمال افريقيا : تونس مراكش الجزائر

ب ــ **مجموعة اللغات السامية** : وهذه أصل نشأتها تنقسم إلى شرقية وغربية

ــ الشرقية : وهي اللغات البابلية ــ الآشورية ــ وتسمى بالاسفينية والمسمارية

ــ العربية : وهذه تنقسم الى شمالية وجنوبية. الشمالية قسمان كنعانية وأرامية

ــ الكنعانية : وهي لغة القبائل التي استوطنت فلسطين وسوريا وتشمل اللهجات التالية : الاجريتية ــ الكنعانية القديمة والموأبية ــ الفنيقية العبرية

ــ الارامية : وتشمل العربية الجنوبية والعربية الشمالية :

ــ العربية الجنوبية : العلماء يطلقون على هذه اسم اليمنية القديمة

والقحطانية وأهم لهجاتها أربع : المعينية ــ السبئية ــ الحضرمية ــ القنبانية.

ــ العربية الشمالية وهي قسمان العربية البائدة والعربية الباقية.

ــ العربية البائدة : وأقدم لهجاتها :

ــ الثمودية : نسبة الى قبائل ثمود التي جاء في القرآن ذكرها وذكر مساكنها

ــ الصفدية : نسبة الى منطقة الصفا، وخطها قريب من الثمودية.

ــ اللحيانية : نسبة الى قبائل لحا التي يرجح انها كانت تسكن شمال الحجاز قبل الميلاد.

ــ العربية : الباقية :

ان اللغة العربية الباقية هي التي ما تزال تستخدم في الكتابة والتأليف والآداب، وهي التي وصلتنا عن طريق الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

والاسلام حين ظهوره صادف هذه اللغة المثالية المصطفاة وهي جديرة بأن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم.

ويكفي في شمولها نزول القرآن بلسان عربي مبين، ذلك اللسان المثالي الذي تحدى خاصة العرب العاربة أن يأتوا بمثله أو بآية من مثله ودعى عامتهم الى تدبر آياته، وتفهمها وفهمها، وأعانهم على ذلك بالتوسعة في القراءات، ومراعاة اللهجات في أحرفه السبعة المشهورة.

ثالثا : تطور اللغة :

إذا كانت اللغة العربية تتسم بسرعة التعبير، وكثرة المفردات، وتنوع الدلالات فان اللغات الأخرى تزداد ثروتها ما كتب لها النماء والحياة والخلود الذي كتب للغة القرآن، ذلك أن هذه قد أتيح لها من الظروف والعوامل ما وسع من طرائق استعمالها، وأساليبها واشتقاقها وتنوع لهجاتها.

وإنطلاقا من قاعدة مفادها : اللغة ظاهرة إنسانية إجتماعية تنمو وتزداد بإزدياد الانسان وعدده وحاجياته فإن الذي ساعد على الاتساع والتطور :

ـــ **الترادف** : إن القاعدة في فقه اللغات بوجه عام ان الكلمة الواحدة تعطى من المعاني والدلالات بقدر ما يتاح لها من الاستعمالات على اعتبار ان كثرة الاستعمال تخلق حد كلمات جديدة تلبي بها مطالب الحياة والاحياء.

ـــ **المشترك اللفظي** : وهو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر ومثل له أهل الأصول بعين الماء، وعين السحاب، وأخصر تعريف له : «اللفظ المشترك» هو ما اتحدت صورته : واختلف معناه.

ـــ **الاضداد** : وليس لهذه مثل ما سبق من الاتساع في التعبير، ومن النكات البلاغية : أن يعبر عن الشيء السيء بالعبارة الحسنة اذا كان واثقا من فهم المخاطب كلامه وأكثر ما يجيء هذا النوع من التعبير للتفاؤل كالتعبير عن الأعمى بالبصير والعطشان بالريان وفي ذلك قوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أي بمنجاة لأن معنى فاز نجا.

ـــ **صيغ العربية وأوزانها** : ان العمل الاشتقاقي يعتبر حركة دائمة تلد للغة العربية كل لحظة مولود جديدا، وتلبي للأحياء أدق مطالب التعبير ففي العربية اذن ظاهرة الحركة الاشتقاقية فيما تلده وتحييه وظاهرة الصياغة القالبية فيما تكسبه وتبينه. وكلتا الظاهرتين تَعُودُ على العربية بالغنى والثراء وتهبها القدرة على التطور والنماء.

رابعا : قيمة اللغةَ العربية :

ان المسلمين قد أحبوا العربية وتعلقوا بها، ومن أجل ذلك توهموا أن آدم عليه السلام كان يعرف العربية، ونسبوا اليه أشعارا كما نسبوا لِلْجِن أشعارا أخرى، وهم يرون أن أكثر من ضل من أهل الشيعة وحاد من عن الطريقة المثلى انما استهواه واستخف وضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها وعرضت عليها الجنة والنار من حواسها وألفاظها.

والانسان حين يقرأ في الأخبار أن لسان أهل الجنة عربي مبين وحين يقرأ

قوله تعالى ﴿ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ يعلم قيمة العربية وشرفها عن العرب.

وقد أخرج ابن عساكر في تاريخه : عن ابن عباس أن آدم عليه السلام كانت لغته في الجنة العربية فلما عصى سَلَبَهُ الله العربية وتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية.

من أجل هذا فالعربية عندهم أصل اللغات وأوسعها ذلك انها لغة التنزيل قال تعالى : ﴿ وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾.

لهذا فقد كان اللحن في العربية بمنزلة الضلال كما جاء في الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال لرجل لحن : «ارشدوا أخاكم فانه قد ضل» وقال أيضا «رحم الله امرأ أصلح من لسانه».

وقد أحب هؤلاء العربية فدرسوها واهتدوا لمسائل دقيقة حتى قال الفراء «وجدنا للغة العربية فضلا على لغة جميع الأمم اختصاصا من الله تعالى وكرامة اكرمهم بها».

ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الايجاز مالا يوجد في غيرها من اللغات ومن اعجابهم بها أنها عندهم فاقت سائر اللغات برشاقة ألفاظها، وحسن بنائها بحيث لا يوجد فيها من الثقل والاعوجاج ما يوجد في غيرها من اللغات التي تمت الى العربية بقرابة النسب، وهي اللغات السامية، الا أن هذا الاعجاب لا ينصب الا على الفصيح منها.

خامسا : أثر الأساليب العربية في صقل الفكر العربي

ان العرب قبل الاسلام وبعده كانوا منقسمين الى فئتين :

ـــ أ ـــ فئة الخاصة : تلك الفئة التي كانت تتطلع الى صقل لغتها وتحسينها فتسمو في تعابيرها الى مستوى الرفع من مستوى التخاطب العادي :

ـــ ب ـــ فئة العامة : وهذه كانت تكتفي بحَظ قليل من فصاحة القول وبلاغة التعبير.

وهكذا فإن البيئة الحضرية في مكة والمدينة كانت تختلف لهجاتها عن لهجات البيئات البدوية المنعزلة التي لا تكاد تستقر على حال.

ان أشهر القبائل التي تروى لها لهجات خاصة تختلف عن اللغة الأدبية المثالية اختلافا ذا بال هي تميم، وطيء وهذيل وهي جميعها قبائل معروفة بالفصاحة بدوية ضاربة في أنحاء الصحراء.

وحتى لا يطول بنا البحث في هذا المجال فان أقصى ما يغتفر لنا الاقتصار عليه في لهجات العربية الباقية مجموعتان رئيسيتان : احداهما حجازية والأخرى تميمية

1) اللهجة الحجازية العربية وتسمى أحيانا قريشية.

2) اللهجة النجدية الشرقية وتدعى أحيانا تميمية.

وهذه القسمة الثنائية الرئيسية الباقية هي الحد الأدنى لتلك المجموعة الواسعة من الوحدات اللغوية المنعزلة المستقلة.

ونظرا لصفاء لغة قريش فان الشاعر من غير فارس كان يتحاشى خصائص لهجته، ويتجنب صفائها في بناء الكلمة واقتراح الحروف وتركيب الجملة يتحدث الى الناس بلغة الفوها وتواضعوا عليها بعد أن أسهمت عوامل كثيرة في تهذيبها وصقلها.

سادسا : لهجة قريش

ان لهجة قريش التي جعلتها العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية اللغة العربية الفصحى المقصودة عند الاطلاق قد ارتفعت في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكشكشة هوازن. ولقد أكد الفراء صفاء اللغة العربية في قريش، وأوضح أسرار ذلك الصفاء بقوله : «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوا من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب، وحلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ لذلك اصطنعت لغة قريش وحدها في الكتابة والتأليف والشعر والخطابة.

وهكذا قد أتيح لقريش أن تتبوأ المكانة الأولى بين اللهجات العربية الشمالية وأصبحت كما قلت هي المقصودة عند الاطلاق. ولذلك أشبعها العلماء بحثا، وزادها نزول القرآن بها مكانة ومجدا.

والعرب منذ القديم يعظمون لهجتها، وأهلها ولا غرو في ذلك فقد جعل الله قريشا قطان حرمه، وجيران بيته الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في أمورهم. ومن السنن الاجتماعية المسلمة أن اللغة اذا تقادم عهدها بالغ الناس في تقديسها. وخير ما أختم به هذه النقطة ما جاء عن ابي نصر الفارابي في هذا الصدد اذ قال : «كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا، وأبينها ابانة عما في النفس ويكفي شاهدا لكل هذا وذلك نزول القرآن بلغتها».

سابعا : كيف اندمجت اللهجات في لغة قريش

طبقا للمقولة الشهيرة لابن خلدون «ان لغة قريش بعيدة عن بلاد العجم من جميع جهاتها» فان ذلك لم يحل دون تسرب بعض الألفاظ الفارسية والرومية اليها.

ان العربية، إِذَنْ ليست بمعزل عن اللغات الانسانية فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير، وهذا التبادل بين اللغات جميعها قانون اجتماعي إنساني.

وهكذا فان العربية أدخلت الكثير من الألفاظ الأجنبية وعربت منه الكثير فقبل الاسلام روي في الشعر الجاهلي، وقريء في سور القرآن واستخرج في الحديث النبوي، وعربت منه كذلك الكثير بعد الاسلام فوجد أعجميا في زي عربي على ألسنة الأمراء والشعراء وفي البيوت والأسواق وما ذلك الا لاضطرارها الى إدخاله في ثروتها من لغات الأمم المجاورة لها، أو التي كان لها معها ضرب من الاتصال.

وهكذا ففي الجاهلية عرب عن الفارسية مثل الدولاب والدسكرة والكعك والسميد والجلنار، وعن الهندية مثل الفلفل والجاموس والشطرنج، وعن اليونانية مثل القبان والقنطار.

وورد في القرآن كثير من معربات الجاهلية حتى قال ابن جرير في القرآن من كل لسان.

ولقد ذكر السيوطي نماذج مما ورد في القرآن

بالرومية : كالقسطاس. فبلغة الروم : «الميزان»

والفارسية : كالاستبراق. بالفارسية : «الديباج الغليظ».

والهندية : مثل طوبى : بالهندية : «اسم الجنة».

والحبشية : مثل الأرائك. بالحبشية : «السرير».

والنبطية : مثل عجل لنا قطنا. بالنبطية «كتابنا».

والعبرية : مثل كفر عنهم سيئاتهم. بالعبرية «محا».

التركية : مثل غساق بلسان الترك «هو البارد المنتن».

وهكذا بالزِّنجية والبربرية في كتاب «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب» للسيوطي.

والخلاصة أن القرآن قد احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير فعرب بألسنة العرب، وحول حسن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت الحروف بكلام العرب ومن ثم فمن قال انها عربية فهو صادق اعتبارا لما ألت اليه، ومن قال أنها أعجمية فهو صادق اعتبارا بأصلها.

ثامنا : كيف كان أهل الغرب ينظرون الى لغة قريش في تربية الأذواق

اذا كان العرب قد اختاروا لغة قريش للتفنن في القول والابانة في التعبير فان اصطفاءهم هذا ناتج من كونها قد اختارت من كلام العرب أبينه وراعت أرشقه، واعتمدت أصفاه.

وهكذا فان الباحثين من الغربيين وغيرهم يؤكدون هذا الواقع والذي ما

له من دافع مضيفين «أن أهم مزية للعربية حفظت لها شخصيتها بين اخواتها الساميات، انما هي عزلتها عن الشعوب الأعجمية، واكتفاؤها بمقدرتها الذاتية على التعبير، وعلى التمثيل والتوليد، وعلى التخيير، والانتقاء في موطنها عينه وفي موطنها نفسِها، وبين شقيقاتها اللهجات الفصحى التي تبادلت معها التأثر والتأثير، بينما كانت الساميات يتفرقن عن موطن السامية الأم، ويبتعدون في الوقت نفسه عن الأصالة والصفاء.

وان لتلك العزلة لنتائج حسنة في محافظة العربية على ظاهرة الاعراب الكامل، ومناسبة حروفها لمعانيها، وثبات أصواتها مع سعة مواردها، وتنوع صرفها واشتقاقها وتعدد ابنيتها وكثرة مصادرها وجموعها. وعلى مفرداتها بالاشتراك، والترادف والتضاد، واستعدادها الذاتي للنحت والتوليد والتعريب.

1) استقبال قريش لنزول القرآن :

شاءت ارادة الله أن ينزل القرآن على محمد ص في مكة والمدينة وضواحيها مفرقا حسب الحوادث والحاجة في ظرف ثلاث وعشرين سنة ليكون آنس للعرب وأدعى للقبول وأبلغ في الحجة عليهم، وأظهر لوجه اعجازه حتى يكون تحولهم عن عاداتهم وتقاليدهم، وأخلاقهم بسهولة ويسر حيث كان العرب قبل الاسلام في إباحية مطلقة.

لكن زعماء الشرك أبو الاذعان للدين الجديد والايمان برسالة محمد فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام فقالوا في القرآن هو شعر، وهو سحر وهو أساطير الأولين، ورموا محمد (ﷺ) بالجنون تارة، وبالكهانة تارة أخرى مما جعل الرسول (ﷺ) يسر بالدعوة ويشهر بها أخرى، وينذر عشيرته الأقربين حينا والناس أجمعين أحيانا. وهذا ما جعله يلاقي هو وأصحابه من النكايات والاذايات ما سجله القرآن والتاريخ لكن محمد (ﷺ) بقي صامدا أمام كل ذلك هدفه الوحيد تبليغ الدعوة الى الناس كافة لعبادة الله وبقي (ﷺ) يدعو الناس لتلك الغاية جماعة نصب عينيه قوله تعالى ﴿ فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك

فانك بأعيننا ﴾. حتى انتشر الاسلام ودخل الناس في دين الله أفواجا اذ ذاك أدركنا عظمة قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يطفأوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[2].

2) هيمنته على الأساليب العربية :

من المعلوم أن القرآن نزل بأسلوب عربي مصداقا لقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾[3] لكنه يمتاز عن ما نطقت به العرب وألفته في تعبيرها جودة وسبكا، وهذا ما يتجلى في : الوزن والتشبيه والاستعارة والايجاز

تاسعا : القرآن وايقاعه الموسيقي :

يتميز أسلوب القرآن بذلك الايقاع الموسيقي الناشيء من تخير الألفاظ العذبة ونظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها ذلك أنه قد تتفق الآية مع وزن بحر من بحور الشعر وليس معناه أن القرآن شعر لكنه ـــ وان لم يقصد اليه ـــ قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعا. فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموجودة والتفعيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقي الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغنى عن التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي.

فالسجع الذي يعتبر نوعا من الأداء اللفظي عند العرب منذ القدم نظرا لوقعه في النفوس وتأثيره على السامعين نجد القرآن يستعمله ما اقتضى المَقَام ذلك على حين أن العربي الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعا لما في ذلك من امارات التكلف والتصنع لا سيما فيما يطول من الكلام[4].

فوزن القرآن إذن على نسق معين في كثير من الآيات اكسبه قوة في التعبير وتأثيرا في النفوس فجاء بذلك حلو النغم لا تمله الآذان لما ينساب في عباراته من الموسيقى الايقاعية الخافتة.

عاشرا : كيف أثر القرآن في الاعجاز اللفظي العربي :

اذا كان الاعجاز نسبة العجز الى الغير واثباته له فان القرآن معجز بالمعنى يفهم من لفظ الاعجاز على إطلاقه، ذلك أن القرآن قد نزل والعرب مفطورون على حب البلاغة والشعر والخطابة والأدب، وكانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الشعراء، وينشرون فيها أشعارهم في مكان يطلق عليه اسم : «عكاظ» وكان هناك شعراء فحول يحكمون بينهم «وهذه الفنون من القول قد اشتهر بها العرب لأمرين :

ـــ ان حياة الصحراء تدعو الى التأمل وإثارة العواطف وإنماء الخيال وهي أمور تقتضي ضروب القول والتفنن في التعبير.

ـــ ان حياتهم القبلية كانت مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة لذا كانوا بحاجة إلى الشاعر المفلق والخطيب البليغ الذي يرفع منزلة قبيلته ويعلي من شأنها، ويحط من قيمة القبائل الأخرى اذ ذاك كثر اهتمامهم بالخطابة والشعر.

فجاء القرآن الكريم أفصح كلاما وأبلغ أسلوبا ليجد السبيل إلى قلوب أهل الجزيرة العربية التي كانت مسرحا للفوضى والاضطراب. ومن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم.

ولما كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضا في المساجلة بالكلام والمقارضة بالقصيد والخطب نجد القرآن قد تحداهم في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو ببعضه، وهكذا جاء في القرآن قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾[6]. وقوله تعالى : ﴿وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[7].

وبلغاء العرب كثيرون، منهم من يضمر للدعوة الاسلامية العداء فلَوْ وَجَدُوا في بلاغة القرآن منفذا من ضعف لجاهروا بذلك ولأتوا بأقوال تفوق فصاحته ولكن من أين لهم ذلك وهو من عند الله وهم عبيده.

وامتدت الأجيال، وتوالت العصور والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عهد يعترفون بإعجازه ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته بلاغة وفصاحة وبيانا.

وهكذا جاء تاريخ العربية بفحول في النثر كابن المقفع والجاحظ وابن العميد، والبديع، وآخرين في النظم : كجرير، والفرزدق وبشار وأبي نواس، وأبي تمام، والمتنبي، والمعري، وشوقي وغيرهم ولكن أين بلاغتهم من بلاغة القرآن وما من أحد منهم الا أذعن وانبهر وخشع وخضع وأيقن أنه وحي السماء.

والخلاصة أن القرآن الكريم قد انفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعا انسانيا ولو كان كذلك ما أفحم العرب، ولما حاول بعضهم معارضته «كمسيلمة» الذي ادعى النبوة، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها، وهكذا يقول الباقلاني : « ان نظم القرآن تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد».

التشبيه في القرآن :

القرآن قد احتوى على أنواع من التشابيه البليغة أكسبت المعاني روعة وجعلتها أكثر تأثيرا في النفس ومن تشابيه القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة، ونكتفي بقوله تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾[8]. وقوله تعالى : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾[9].

الاستعارة في القرآن :

من استعارة الكلمة من معناها المعروف إلى معنى جديد لم تعرف به في أصل اللغة، وذلك بعد أن تتوفر بين المنقول اليه والمنقول عنه علاقة المشابهة وحكمة ذلك اظهار الخفي، وإيضاح الظاهر الذي ليس يتجلى بصورة أجلى وأوضح، وقد احتوى القرآن على صنوف من الاستعارة تظهر بلاغة القرآن وعلو منزلته في التعبير.

هذا والاستعارة تؤدي بألفاظ قليلة ما تؤديه شروح كثيرة من ذلك قوله تعالى : ﴿اشتعل الرأس شيبا﴾[10] فاشتعل استعارة لأن الاشتعال معهود للنار لكن لما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئا فشيئا كان بمنزلة النار التي تدب في الفحم في بطء واستمرار حتى تأتي عليه والعلاقة واضحة ضوء النهار وبياض الشيب. وقوله تعالى : ﴿والصبح اذا تنفس﴾ ان طلوع الشمس أولا فأولا أشبه بخروج النفس شيئا فشيئا. وبذلك جاء أسلوبه أرقى الأساليب وأفصحها وأبلغها وأعلاها.

الايجاز في القرآن :

الايجاز هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ والقرآن الكريم يدل بالكلمة الواحدة، وبالكلمة المختصرة على معان متعددة يطول شرحها مما جعله يرقى على الأساليب العربية، ولنكتف بقوله تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾[11]. هذه الآية بينت حكمة القصاص بأبلغ معنى وأوجز تعبير.

والعرب قبل الاسلام كانوا يمتدحون هذا القول البليغ : «القتلى أنفى للقتل» فلما جاء القرآن بهذه الآية ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ تركوا القول العربي لعلو بلاغة القرآن عليه والتي تبرز من عدة وجوه : منها : ان الآية مُطردة بخلاف المثل فانه ليس كل قتل أنفى للقتل بل قد يكون ادعى له، وهو القتل ظلما، وانما ينفيه قتل خاص وهو القصاص ففيه حياة أبدا، وهو الذي نص عليه القرآن ومنهما : أن أقل حروفا فان حروفها عشرة وحروف «القتل أنفى للقتل» أربعة عشر حرفا. منها : ان لفظ القصاص مشعر بالمساواة فهو منبىء عن العدل

بخلاف مطلق القتل وكذا قوله تعالى : ﴿خذ العفو وامر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾[12].

وقوله تعالى : ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾[13].

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية بل القرآن أجمع مما يدل على هيمنته وعلوه عما نطق به العرب ولا غرو في ذلك لأنه من عند الله وهو أقوى جودة وسبكا وأسلوبا مما عند الناس عباده.

إحدى عشر : كيف استمد الحديث الشريف بيانه الفني من القرآن الكريم :

بعد الحديث عن بلاغة القرآن وإعجازه فلنتحدث عنه أيضا كعامل مؤثر أو أستاذ أكبر لمحمد بن عبد الله عليه السلام :

انه القرآن الكريم الذي ترك بصماته في ذلكم الرسول العظيم بلاغة وفصاحة وبيانا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد اختار محمدا من بين آلاف الفصحاء من قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن، ووكل اليه أن يفسر كتابة ويبين وحيه حين قال في محكم آياته ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾[14]. وحين قال : ﴿فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا﴾[15] وحين قال ﴿لقد من الله على المومنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[16]. الى غير ذلك من الآيات التي تنطق بمهمة الرسول في الابلاغ والتبيين والهداية فاذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتهاولون بالبيان، ويتقارعون بالفصاحة فلا بد أن يكون الذي يتولى هدايتهم من الظلمات الى النور بالبرهان والمنطق أشدهم بيانا وأقواهم حجة.

وهكذا كانت وحدته بغار حراء بداية الطريق حيث فيه بدأت الرؤيا الصادقة، وفيه نزل الروح الأمين بالقرآن المبين على قلب محمد ليكون من المرسلين قال تعالى : ﴿وانه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[17].

وأخذت آيات القرآن تتوالى فكانت الاجابة الشافية لكل ما جاش في صدره من خواطر، وفتح الرسول (ﷺ) عينيه على هذا البيان الهابط من السماء فاذا به ينقذ من حيرته، ويجيب على أسئلته، ويؤيد وجهة نظره في الحياة والأشياء، وكان ذلك كله التفسير الصادق لقوله تعالى : ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾[18] وقوله تعالى : ﴿واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا﴾[19].

وهكذا كان التلميذ المعتزل يرى الليل والنهار، وارتفاع السماء وانبساط الأرض وتفجير الأنهار، وإرسال الرياح، ونهوض الجبال، وإجراء الرزق، وبدء الخلق فيتساءل متلهفا أتم ذلك بدون مبدع ؟ أقامت به الأصنام الصم ؟ فتأتي إجابة الأستاذ دقيقة صريحة بمثل قوله تعالى : ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما تشركون أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة مَا كَانَ لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله قليلا ما تذكرون، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون﴾[20].

بمثل هذا الحوار البناء الرباني نمت أفكار محمد (ﷺ) ولقحت فأنجبت البلاغة والفصاحة والبيان، وهكذا قد أفحم العرب العاربة بتلك البلاغة التي تعتبر توفيقا من الله لمحمد (ﷺ) الذي بعثه لقوم يقادون من ألسنتهم والذين لهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة فكان لا بد لهم. إذن من لسان أفصح من ألسنتهم لينقادوا له وليخضعوا وبذلك ندرك معنى قوله تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾[21].

تلك البلاغة القرآنية قد ملأت حياة الرسول، وشغلت عقله وقلبه وبالتالي أورثته الحكمة والبيان بما جعل عائشة رضي الله عنها تقول بعد ما سئلت عن

خلقه «كان خلقه القرآن» لما سأله أبو بكر رضي الله عنه. قائلا : «لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) : «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

لذلك كانت أحاديثه عليه السلام سببا في وجود كثير من العلوم فالفقهاء وجدوا فيها ما يعينهم على إستنباط الأحكام. وعلماء الحديث فسروها وأدركوا ما فيها من هدى وحكمة ومثل عليا، وأهل اللغة أخذوا يدرسونها ويستفيدون من ألفاظها. وأرباب البلاغة والأدباء أصبحوا يترسمون أثرها فيما أحدثت من معان بليغة وتعابير صحيحة.

والخلاصة أن البلاغة القرآنية جعلت الحديث النبوي الشريف في مرتبة من الفصاحة والبيان لا تدانى، مما دفع الأدباء إلى الاستشهاد بعبارات الرسول والاقتباس منها، والاستعانة بها في شعرهم ونثرهم لتسمو فوق مستوى كلام الناس وليكون بها من الفضل ما ليس لكلام الآخرين.

خلاصة الخلاصة ان القرآن الكريم الأستاذ الأكبر لمحمد (ﷺ) ترك بصماته في هذا الرسول العظيم حتى جاءت أحاديثه مليئة بلاغة وفصاحة وبيانا.

II- : التصوير بأساليب البيان

ان التصوير في هذا المبحث يتجلى في تلك التراكيب المختلفة والأساليب المتفاوتة في وضح دلالة الألفاظ حتى يجيء المعنى الذهني لابسا ثوبا محسوسا ولونا ملموسا، والحديث النبوي الشريف له من فنون القول وأساليب التعبير ما ليس للعرب العاربة، وهذا ما أعرج عليه في بعض النماذج من الأحاديث في الفرعين الآتيين :

الفرع الأول : التصوير بالتشبيه.

الفرع الثاني : التصوير بالمجاز.

الفرع الأول : التصوير بالتشبيه :

إذا كان للاشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني

وترسيخها في النفوس فإن التشبيه يعتبر أقوى وسائل البيان لما يتسم به من التصوير والتقريب، وبذلك يكون للمعنى الذهني وقع في النفوس وتأثير في الوجدان، واذا كان القرآن مليئا بهذا مصداقا لقوله تعالى : ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾. فان دارس الحديث الشريف يجد فيه الكثرة الكاثرة من ذلك، وهذه نماذج نلحظها رأى العين والفكر في الفقرات الآتية :

أولا : التصوير بالتشبيه المرسل :

قال رسول اله (ﷺ) : «المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ثم شبك بين أصابعه»[22].

في هذا الحديث النبوي الشريف، وبهذا التصوير المحسوس : يتجلى التعاون بكل أبعاده فهو (ﷺ) لم يقل : «المومن للمومن جزء لا يتجزأ أو جنس واحد في التعاون»، وانما أتى بصورة حية تتجلى فيما يدرك طريق الحاسة انها صورة البنيان المحكم المكون من تلك اللبنات المختلفة والاحجاز المتماسكة المرتكزة على أسس متينة، إنه البنيان المرصوص الذي له في دقة التعبير أثر في الحواس، ووقع في النفوس.

بهذا التصوير الذي تم عن طريق الشبه المرسل الذي تذكر فيه الاداة يتأكد للسامع والقارىء معا أن المومنين الخلص يتآزرون ويتعاونون في السراء والضراء في الحل والترحال

وهكذا يقول عليه السلام : «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذَا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. فيا له من بيان، وما أروعه من تصوير إنها المصاحبة بمعناها في روْضات الجنات رسول وبجانبه كافل يتيم لا حائل بينهما كما لا حائل بين السبابة والوسطى فطوبى لكم أيها الكفلاء.

ثانيا : التصوير بالتشبيه المؤكد :

قال رسول الله (ﷺ) : «اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبورا» وعن أبي هريرة ضَ قال : قال رسول الله صَ «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، ان الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة[24].

ما أروع هذا البيان والتصوير الذي يأتي بعد الأمر بجعل صلاة النوافل في البيوت، وكذا الفرائض عند الضرورة انها مشهد القبر المظلم المنسَد من كل جهة تأكيدا في عدم دخول النور اليه ان لم يكن ليلا فنهارا وان لم يكن عاديا فكهربائيا.

كان يكتفي بهذا التشبيه لو أتي بالأداة فحسب كالقبر ولكن الرسول (ﷺ) لم يفعل ذلك و لم يكتف بهذا التصوير... ولكنه عمد الى تأكيد ظلمة البيوت الخالية من الاذكار والصلوات حتى لكأنها القبر بعينه عن طريق حذف الأداة الذي يفيد اتحاد المشبه، البيوت الخالية من الأذكار والصلوات مع المشبه به «المقابر» في وجه الشبه «الظلمة» انه البيان الذي أوتيه من لا ينطق عن الهوى.

ومن العلوم لذى البلغاء أن التشبيه المؤكد هو ما حذفت منه الاداة وذاك يشعر أن المشبه هو عين المشبه به في وجه الشبه اما مبالغة أو تحقيقا كل ذلك لنقل الخفي الى الجلي والمعنوي الى المحسوس وذاك شأن التشبيه والتصوير كما قرر أعلاه.

ثالثا : التصوير بالتشبيه المجمل :

قال (ﷺ) : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل،[25] ما أروعه من بيان، وما أجمله من تصوير، انه التجرد والتخفيف مما يثقل الكاهل من الحقوق والمسؤوليات، وهكذا قال الرسول (ﷺ) فألبس لهذا المعنى ثوبا محسوسا ولونا ملموسا، انها العربة التي لا يحمل الانسان معه فيها الا ما كان ضروريا للحياة. وهكذا نفحنا بهذا التصوير، ومن منا لا يعرف العربة ولا عابر السبيل يبقى أيضا للحديث تصوير آخر يتجلى في ذلك الزاد الذي يحتاج اليه كل من الغريب وعابر السبيل، وذى الأجل المسمى.

والخلاصة أن هذا التصوير جاء عن طريق التشبيه المجمل الذي يحذف فيه وجه الشبه. الذي يفيد العموم أي أن المشبه يتحد مع المشبه به في وجه الشبه. ومن ثم كان أقوى من المفصل والتخصيص.

رابعا : التصوير بالتشبيه المفصل :

قال رسول الله (ﷺ) : «ان أحدكم مرآة أخيه فان رأى به أذى فليمطه

عنه»[26] وفي رواية : «المومن مرآة أخيه المومن : يرى فيه حسنه وقبحه» في هذا الحديث الشريف صفحة من صفحات الجمال الفني في روعة العرض وسمو التصوير، وهكذا فالرسول (ﷺ) لم يقل : إذا رأيت بأخيك عيبا فأمطه عنه بهذا التعبير، وان كان هو المراد، ولكنه أتى به في لوحة أخرى من لوحات البيان حيث شبه المومن بالمرآة التي تعكس صورة ناظرها والتي يثق بها أكثر من سواها.

فهو (ﷺ) من هو الذي أوتي البيان أضاف في تتمة الحديث السابق قائلا «فان رأى به أذى فليمطه عنه» تأكيدا في بذل النصيحة لأخيه المومن حتى يسلم عرض أخيه، وفيه سلامته هو الاخر. على اعتبار أنهما ذات واحدة وجزء لا يتجزأ.

فدقة التعبير البلاغي نلحظها بالاضافة الى التصوير في ذلك التفصيل «فان رأى به أذى فليمطه عنه فلو اكتفى بالجملة الأولى «المومن مرآة أخيه» لما كان هناك أمر بإزالة الأذى حتى ولو رآها.

والخلاصة : أن هذا البيان أتى عن طريق التشبيه المفصل الذي يذكر فيه وجه الشبه، والذي يفيد الايضاح والتخصيص.

يبقى علينا أن نتساءل : أين تكمن قوة البلاغة هل في التشبيه المجمل أم المفصل ؟ انها في المجمل أقوى لافادته العموم والاتحاد كما أوضحت ذلك في المجمل آنفا على حين أن المفصل يفيد التخصص، وإبرازا لهذا المعنى نأتي بالمثال التالي : «علي كالشمس». فحذف الوجه هنا يفيد أن المشبه يشترك مع المشبه به في كل ما يتصف به من ضياء وعلو وارتفاع وَانتقال وظهور وغير ذلك... على عكس التشبيه المفصل ألا ترى لو قلنا.. علي الكشمس في الضياء. فنكون قد قيدنا المشبه بصفة واحدة من صفات المشبه به، وقد يكون أقوى.

خلاصة الخلاصة : ان البلاغة تكمن في كل منهما ما اقتضى ذلك المقام كما في المثال أعلاه حيث نجد المفصل أقوى من المجمل ذلك أنه ان كان في المجمل الرؤيا فقط «المومن مرآة أخيه» فان في التفصيل الرؤية وزيادة وهي الأمر بإزالة الأذى.

خامسا : التصوير بالتشبيه البليغ :

قال رسول الله (ﷺ) : «العلم خليل المومن، والحلم وزيره، والعقل دليله والعمل قيمه، واللين أخوه، والرفق والده، والصبر أمير جنوده»[27].

في هذا الحديث الشريف ريشة تمسح الخفاء وتزيل الغشاوة للعقل أن يدرك أن في العلم حياة النفوس، وغذاء القلوب، ونور العقل والابصار ذلك أنه يؤنس به من الوحشة، ويسكن اليه في الوحشة كما يأنس الخليل بخليله وبعبارة أخرى أن نفعه عام. وما استفيد هذا الا عن طريق حذف الاداة ووجه الشبه فهو (ﷺ) لم يقل : العمل كالخليل في التأنس حيث يكون التخصيص لكن المراد ما هو أعم، ولا يحصل هذا لدى أهل البلاغة الا عن طريق حذف الاداة ووجه الشبه اللذين يفيدان أن المشبه هو عين المشبه به وكأنه ليس هناك تشبيه، انطلاقا من قاعدة مشهورة لديهم مفادها أن التشبيه كلما دق وخفي بل وكلما تناست أطرافه كان أوقع في النفس وأجدى تأثيرا.

والتشبيه البليغ : هو ما تحذف فيه الأداة ووجه الشبه وهو يشمل كذلك بقيمة الحديث الشريف (والحلم وزيره) أي في الاستعانة به على الأمور (والعقل دليله) أي في الاهتداء. (والعمل قيمه) أي في التقويم من الزلل (واللين أخوه)، أي في جلب الاخوان. (والرفق والده) أي في حفظ المودة (والصبر أمير جنوده) أي في التقديم عليها.

سادسا : لتصوير بالتشبيه التمثيلي :

عن أبي موسى الأشعري (ض) أن رسول الله (ﷺ) قال : «مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحَامل المسك ونافخ الكير فحامل المِسك اما أن يحذيك واما أن تبتاع منه، واما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك واما أن تجد منه ريحا منتنة[28].

ما أروعه من بيان وما أجمله من تصوير تتجلى فيه تلك البلاغة النبوية انها الصورة الحية لذلكم الجليس الذي لا يعدو أن يكون جليسا صالحا حيث ترتاح اليه النفس ويَطمئن اليه الفؤاد، وتنتعش به الروح بالطرب لحديثه، والتنعم

بمجالسته، إنه عدة في الرخاء وأخ في الشدة، أو أن يكون جليس سوء حيث يكون معه الصاحب في خسارة دائمة، فان لم يحرقه بناره أحرقه بشراره فصحبته هم دائم وحزن ملازم.

وهذا التصوير أتى عن طريق التشبيه التمثيلي الذي يكون وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أشياء متعددة. والحديث الذي معنا يتجلى فيه هذا التعريف ذلك أن وجه الشبه بين الجليس الصالح وحامل المسك يبدو في النفع العام فهو في الجليس الصالح : النصيحة، وكف الأذى، وبذل المعروف، وفي حامل المسك اما الرائحة الطيبة واما الشراء.

وهذا النوع من التشبيه له تأثير عظيم في النفوس، ذلك أنه اذ وقع في صدر الكلام بعث المعنى الى النفس بوضوح وجلاء مؤيدا بالبرهان ليقتنع به السامع وهو كثير جدا في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾[29].

وإذا جاء بعد تمام المعنى كان كالبرهان الذي تثبتت به الدعوى والحجة التي توجب الاذعان كقول الشاعر :

لا ينزل المجد الا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

الفرع الثاني : التصوير بالمجاز :

اذا كانت الحقيقة تفيد استعمال اللفظ فيما وضع له على اعتبار انها أتت من حق الشيء يحق اذا ثبت واستقر بمعنى أن اللفظ يثبت ويستقر اسمه على مسماه كإطلاق اسم عمر على الذات المسماة بهذا الاسم فان المجاز بعكس ذلك أي استعمال اللفظ في غير ما وضع له، ومن ثم أتت تسميته بالمجاز لأنه من جاز المكان يجوزه اذا تعداه الى غيره ومنه أوراق جواز السفر التي تخول لحاملها مغادرة التراب الى تراب آخر.

وهذا التجاوز بالنسبة للألفاظ لا يصح الا اذا وجدت هناك علاقة بين المنقول اليه، والمنقول عنه أي بين المشبه به والمشبه، هي في المجاز اللغوي المشابهة،

وفي المرسل والعقلي غيرها كما لا بد من وجود قرينة لفظية أو حالية مانعة من استعمال المستعمل مجازيا في معناه الحقيقي.

وبما أن المجاز أنواع ثلاثة لغوي ومرسل وعقلي فان الأول يعتبر روح الاستعارة على الاطلاق.

أولا : التصوير بالاستعارة التصريحية

قال (ﷺ) «أوثق العرى كلمة التقوى»[30] :

ما أروع البيان بعد الابهام، وما أجمل الظهور بعد الخفاء، وبخاصة اذا ما كان البيان بيانا وكيف لا وهو (ﷺ) من هو الذي أوتي البلاغة وسحر البيان انظر كيف أعطى (ﷺ) للتقوى التي تحمل في طياتها الأمن والأمان صورة ملموسة تتجلى في تلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها على اعتبار أن الجامع بينهما الامن والنجاة في كل منهما، فذاك حفاظا على نفسه من المزالق والسقوط اختار العروة الوثقى.

وهذا حفاظا على نفسه من الجزاء السيء غدا يوم القيامة جعل بينه وبين كل ذلك عمله الصالح وقاية قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾[31]. أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية، وهذه تتجلى في الذي أحسن العمل والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

فالرسول الكريم لم يقل المومنون في أمن وأمان غدا يوم القيامة بهذا اللفظ، ولكن ــ وان كان ذلك هو المراد ــ ألبس له حلة أخرى فجاءت تفيد ذلك بلون آخر محسوس وتلكم هي الغاية في التصوير والدقة في التعبير.

وطريقة إجراء هاته الاستعارة كالآتي : شبهت القوى بالعروة الوثقى بجامع الأمن في كل منهما ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به الذي هو العروة الوثقى للمشبه، الذي هو التقوى، على سبيل الاستعارة التصريحية للتصريح فيها بالمشبه به وهذا كثير في البيان النبوي الشريف في غير ما تصوير أو تقرير والقاعدة : ان الاستعارة التصريحية هي التي يصرح فيها بلفظ المشبه به.

ثانيا : التصوير بالاستعارة المكنية

قال رسول الله (ﷺ) «أن هذا المال خضرة حلوة»[32].

بهذه الصورة الرائعة يصور الرسول الكريم حلاوة المال وملذاته محذرا عباده الحريصين فِطرة على جمعه أيا كانت السبل الا من رحم ربك أن يكتسبوه بالطرق المشروعة على اعتبار أن القليل الحلال كثير لانه يبارك فيه، كما جاء في الحديث، ولا يحاسب عليه في حين أن الكثير الحرام قليل لأنه لا يبارك فيه وبالتالي يحاسب عليه.

والدقة في التصوير النبوي تكمن في ذلكم المثل المحسوس المدرك بالبصر والذوق انها الثمرة التي تمتاز عن سائر النباتات بحسن منظرها وحلاوة مخبرها، فهو (ﷺ) شبه حلاوة المال المعنوية بحلاوة الثمرة الخضرة الحلوة بجامع الحلاوة والملذات في كل منهما وحذف المشبه به الذي هو الثمرة وترك شيئا يدل عليها انها الخضرة الحلوة على سبيل الاستعارة المكنية التي يحذف فيها المشبه به ويرمز اليه بشيء من لوازمه.

ومما زاد التصوير دقة والايضاح بيانا ذلكم الاختيار الوافي لصورة المشبه به التي ضرب بها الرسول (ﷺ) المثل في غير ما حديث عندما قال : «مثل المومن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب»[33].

ثالثا : التصوير بالمجاز المرسل :

هذا النوع من المجاز يعتبر لدى البلغاء أسلوبا تصويريا يفيد المعاني تقريرا ويزيدها توكيدا وفضلا عن الايجاز واعطاء المعنى صورة حية ولونا جذابا. وهذه لمع من البيان بهذا الأسلوب نختارها للاستشهاد بها على صدق ما قيل.

عن ابن عمر رضس الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ) وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : «اليد العليا خير من اليد السفلى (والعليا) هي المنفقة (والسفلى) هي السائلة[34].

بهذا التصوير والتقرير يريد (ﷺ) من المومن أن يكون عزيز النفس لا

عالة يسأل الناس أعطوه أو منعوه، والشريعة الاسلامية عادلة سامحة أباحت الصدقة لذوي العلل العاجزين فقال تعالى : ﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ كما حرمت السنة الصدقة على غيرهم فقال عليه الصلاة والسلام «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى»، وقال : «من سأل الناس تكثرا فانما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر» الى غير ذلك من الأحاديث التي تحث على العمل ولو بنقل الحطب على الظهر وبيعه حتى لا يكون عالة على الناس لما فيه من اهدار ماء الوجه وماء الوجه ليس له ثمن زد على التفضيل والتكريم اللذين خص الله بهما هذا النوع الانساني : فقال تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملنا هم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[35].

والحديث الذي نحن معه يسلك مسلك التصوير لحال المعطي والآخذ : فهذه يد ذاهبة بالعطاء عزيزة منشرحة عالية، وتلك ممتدة للسؤال ذليلة محتشمة نازلة فالقصد من التصوير في الحديث جعل الشخصين في منزلتين عليا وسفلى وفضل الأولى على الثانية.

فالتعبير باليد وهي الجزء وارادة صاحبها وهو الكل مجاز مرسل علاقته الجزئية وارادة الكلية. وهذا كثير في كلام العرب قال الشاعر

كم بعثنا الجيش جرارا وكم أرسلنا العيون

والمراد الجواسيس ولهذا التصوير من التقرير والدقة في التعبير مالا يخفى على ذى الذوق السليم، تأمل لو قيل الرجل الأعلى خير من الرجل الأسفل أو صاحب اليد العليا خير من صاحب اليد السفلى أيكون له من الوضوح والتقرير ما للمجاز ؟ كلا وانما اختير التعبير باليد لأن الاعطاء والأخذ آلتهما اليد فهي أخص الأعضاء من الكل بالفعلين : زد على ايجاز العبارة وتصويرها المعنى صورة تنفر السئال من أين يكون الأسفل.

رابعا : التصوير بالمجاز العقلي :

اذا كان المجاز العقلي يفيده اسناد الفعل أو ما في معناه من اسم الفاعل واسم المفعول... الى ملابس له غير ما هو له في الواقع فان الذي يهمنا في هذا المقام انه مسلك أسلوبي من مسالك التصوير الجميلة التي تلطف التعبير حتى تعمل في النفس عمل السحر، والآن مع روائع البيان النبوي الشريف.

قال صلى الله عليه وسلم : «خير المال عين ساهرة لعين نائمة»[36] في ضوءٍ كضوء القمر الواضح في هدوء وقرب يضع لنا الرسول الكريم هذه الصورة وهي تحمل في طياتها البيان والتصوير والتقرير فهو (ﷺ) لم يقل العين النابعة ماء ليل نهار كالانسان الساهر وانما جاء بذلك في أسلوب يفيد الايجاز والتصوير عكس الأول الذي يفيد التصوير دونه.

فاسناد السهر الى العين في الحديث مجاز عقلي من باب اسناد الفعل الى غير من هوله، وهو هنا اسناد السهر الى غير من هوله.

فالسهر غير قار عادة وعقلا لا يسند الا الى الانسان الذي يكد ويجتهد فأشبهت العين بانتاجها المتواصل ومردودها الفياض ذلكم الانسان العامل الجاد، وعلاوة على هذا فان الحديث الشريف اكتسب ايضا في البلاغة ما يسمى بالطباق الذي هو الجمع بين الشيء وضده جمالا يعلو به عن المتعارف كما اكتسب أيضا من المجاز المرسل في اطلاق العين وإرادة صاحبها لونا آخر بلاغيا جعله من أروع التصوير.

خامسا : التصوير بالكتابة :

ما أحلى وما ألذ التلويح، وبخاصة اذا ما مس المعنى مسا جعلك تدركه على التَّو وَدُونَ عناء التفكير.

والكتابة تعتبر من أروع المسالك البيانية والطرق الأسلوبية في التصوير ومن ثم قال الخطيب في بيان بلاغتها «أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح معللا ذلك بأن الانتقال فيهما من الملزوم الى اللازم فهو كدعوى الشيء ببينة».

والرسول عليه الصلاة والسلام قد استعمل هذا المسلك الأسلوبي للتصوير لما فيه من الايجاز والبيان والتقرير والتأكيد.

ولهذا نكتفي بالأمثلة الآتية من بيانه عليه الصلاة والسلام بهذا الأسلوب الكنائي.

عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنه قال لا : قال رسول الله صّ :

يكون في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تعالى : «أبي تغترون أم علي تجترؤون... فَبِي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تذر الحليم فيهم حيران»[37].

في هذا الحديث الشريف نفحة من نفحات القدس، ولمسة من لسمات الجمال، وابداع في التصوير فوق ما يتصوره الخيال، انه يرسم اليك النفاق والرياء والخديعة بجلاء ولون جديد انها الذئاب اللابسة لجلود الضأن قصد الخدَاع والفتك فهذا كلامهم المعسول وذاك مفاده المسموع انهم يتربصون الدوائر ما وجدوا السبيل وهم ينصبون الحِبالة ما وجدوا الشراك. انهم يخادعون الله وهو خادعهم انهم في الدرك الأسفل من النار، ذلك فعلهم وهذا جزاؤهم.

فالرسول (ﷺ) لم يقل يأتي في آخر الزمان منافقون هكذا ولكن أتى بذلك في صورة تأخذك بتلمسها الحيرة والدهشة. انهم ذئاب في ثياب، انهم ذوو وجهين.

وبهذه الدقة في التعبير والعرض في التصوير تكون الكنايات من أروع وسائل البيان.

فهي لدى البلغاء، استعمال اللفظ وأريد به لازم معناه لعلاقة غير المشابهة مع صحة ارادة المعنى الجديد.

III ــ التصوير في علم المعاني :

هذا الفن عبارة عن قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لما يقتضيه الحال.

واذا كان اللفظ العربي يقيد معاني متعددة فان الذي يفيد مطلقه ويخصص عامه هو السياق.

ففي المعاني نعرف كيفية تأدية المعاني الى المخاطبين ونعرف أسباب التقديم والتأخير والحذف والذكر والايجاز أحيانا والاطناب أخرى والفصل تارة والوصل

أخرى، وبه نقف على أسرار البلاغة في منظوم الكلام ومنثوره، وبه ندرك السر في افتخاره (ﷺ) اذ قال : «أنا أفصح من نطق بالضاد» وقوله : «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا» وأخيرا نعرف تعجب الصحابة الكرام من فصاحته (ﷺ) فقد روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال له : مابالك يارسول الله أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟.

واذا كان الكلام العربي أصالة لا يخرج عن الخبر والانشاء فسأتناول التصوير النبوي فيهما مقسما هذا المبحث الى مطلبين :

المطلب الأول : التصوير بالخبر

أولا : التصوير بالخبر المجرد :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال : «المومن القوي خير وأحب الى الله من المومن الضعيف. وفي كل خير[38] رواه مسلم».

بهذه الجملة الخبرية المجردة من التأكيد يسوق الينا الرسول خبرا مفاده أن المومن القوي في ايمانه وعقيدته وعلمه وجسمه خير وأحب الى الله من المومن الضعيف.

ذلك أن الاسلام دين القوة والعزة والكرامة ﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين﴾ ولا يرضى بحال من الأحوال أن يكون أتباعه في ضعف وهوان ولا في مذلة واستكانة فلا يجتمع ايمان وهوان كما لا يجتمع النور مع الظلام

والرسول الكريم أتى بهذا الخبر في صورة مجردة وهذا له ما له من وقع في النفوس وتأثير في الوجدان صدقت يا أفصح من نطق بالضاد.

والبلغاء قرروا قاعدة بلاغية في هذا الصدد مفادها ان المخاطب ان كان خالي الذهن يلقى اليه الخبر بدون توكيد والمراد بخلو الذهن عدم وجود الشك لدى المخاطب في الخبر الملقى اليه.

والرسول عليه السلام حينما ساق الخبر علم يقينا أن أحدا من أصحابه لا يشك في خبره لذا أتى به مجردا من التأكيد ومن تم كان التجريد أشد تصويرا تريرا من المؤكد لأن المقام لا يقتضيه.

ثانيا : التصوير بالخبر المؤكد :

المراد بالتوكيد تقوية الكلام وتقريره حتى لا يحمل غيره، وهو يختلف قوة وضعفا حسب انكار المخاطب أوشكه ومن تم كانت الجملة الخبرية تأتي مقترنة بأداة التوكيد متحدة تارة ومتعددة أخرى، وهكذا أتناول التصوير النبوي الشريف على اختلاف المؤكدات في النماذج الآتية :

ان المؤكدة : عن علي بن الحسين قال : قالت صفية رضي الله عنها «كان رسول الله (ﷺ) معتكفا فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي حتى اذا بلغ باب المسجد مر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله (ﷺ) أسرعا. فقال : على رسلكما، انها صفية بنت حيي فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! فقال : «ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، واني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا، أو قال شيئا»[39].

بهذا التوجيه النبوي الرشيد الذي يصل الى سويداء القلوب سَاق لنا الرسول الكريم الخبر مقرونا بأداة التوكيد انها صفية بنت حيي : دفعا لكل ما قد يختلج في فؤاد الرجلين من الشك والارتياب حينما أقبلا مسرعين.

والقاعدة لدى البلغاء أنه كلما استشعر التساؤل والارتياب دفع بالتوكيد.

ولما كان الرجلان من الأنصار لم ينكرا على رسولهما شيئا أوتي بالخبر مقترنا بأداة التوكيد متحدة «انها صفية بنت حيي».

ثم ان التصوير أتى مرة أخرى في قوله عليه السلام «ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» تنبيها لما ينبغي أن يعلم على وجه من التأكيد وهو شدة ملابسة الشيطان لقلب الانسان.

والدقة في التصوير تكمن في قوله (ﷺ) «يجري من ابن آدم مجرى الدم فذلك كناية عن القلب لأنه أخص أجهزة الجسم بتصريف دمه بمعنى أنه اذا ما انبثق الدم مشفوعا بنفثته الى باقي الأعضاء أصاب كلما صدر عن القلب.

وفي تتمة الحديث لما علم الرسول عليه السلام أن الشيطان عدو ويجب

أن يتخذ عدوا، كما جاء في سورة فاطر، أتى بتصوير وتقرير يفيد اتخاذ الحيطة والحذر منه حتى لا يقع الانسان في فخه الذى آلى على نفسه لينصبنَّه للناس أجمعين الا عباد الله المخلصين ومن ثم قال عليه السلام «فاني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا».

ثالثا : التصوير الخبري مؤكدا بالنون :

من المعلوم لدى البلغاء أن هناك نونا تسمى نون التوكيد تنقل بالتضعيف، وتخف بالتسكين تأكيدا لأفعال المضارعة، وتقريرا أو تصويرا لمعناها. والبيان النبوي الشريف يؤكد بهذه النون ما اقتضى ذلك المقام.

ـــ عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : «لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلسه فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم»[40].

بهذا التوجيه النبوي الحكيم يرشدنا الرسول الكريم الى التأخي والمحبة والتسامح وترك كل سلوك يغرس الحقد في النفوس ويجَرح الكرامة.

وهكذا نهانا (ﷺ) ـــ ارشادا لنا ـــ أن يقيم أحدنا رجلا في من مجلسه تم يجلس فيه، لما في ذلك من الحزازات النفسية التي تنبيء عن التمايز الذي يتنافى والمساواة في الاسلام، ما لم يكن ذلك عن طيب خاطر من الجالس اكراما للقادم حيث يجوز ذلك بل وحتى القيام له ترحيبا به وتقديرا على حد قول الشاعر :

إذا ما الكريم أتى مقبلا حللنا الحبا وابتدرنا القيام
فلا تنكرن قيامي له لأن الكريم يجل الكرام.

فالرسول عليه السلام لم يقل أحدا بالنهى فحسب ولكنه أتى بما يفيد النهي وزيادة، انها نون التوكيد الشديدة التي تقرر عدم جواز قيام أحد لأحد من مجلسه والجلوس فيه، كما توحي بتصوير حالة الناهي أثناء خطابه التي تحمل في طياتها معنى التهديد والوعيد الشديد،.

رابعا : التصوير المؤكد باللام :

ع ن فضالة بن عبيد قوله عليه السلام : «لله أشد أذنا الى الرجل الحسن

الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته»[41].

انظر معي أخي الى أسلوب البيان وجمال التصوير فها هو صاحب القينة يخزن سمعه عن كل حس وصوت لا يفتحه الا الى سماع قينته حتى لا يفوته عزف آلتها ولا ايقاع معناها. وها هو ربنا عز وجل سبحانه من اله أقرب الينا من حبل الوريد الذي يعلم ما توسوس به الأنفس وخائنة الأعين وما تخفي الصدور أشد انصاتا منه الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن الجاهر به.

وتتوالى الأزمان ويقول عليه السلام لابن مسعود اقرأ على القرآن فيأتي التساؤل من هذا الصحابي الجليل : «أأقرؤه عليك وعليك أنزل ؟» فيأتي الجواب النبوي الشافي «اني أحب أن أسمعه من غيري». فاذا بابن مسعود يتلو واذا بعيني رسول الله (ﷺ) الشريفتين تذرفان بالدموع... الحديث...

والتحق الرسول الكريم بالرفيق الاعلى وجاء دور الصحابة الكرام وقد سلكوا هذا المسلك وساروا على هذا الدرب حيث اذا ما تليت عليهم آيات الرحمان خروا سجدا وبكيا ﴿واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾[42]. ﴿واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين[43]﴾.

وهكذا يتجلى التصوير النبوي في سوق الخبر باللام نظرا لما يقتضيه المقام منَ العناية والاهتمام، بالاستماع والانصات الى القرآن رجاء نيل الرحمة من الرحيم الرحمان قال تعالى : ﴿واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾[44].

خامسا : التصوير بخروج الكلام عن مقتضى الظاهر

ان خروج الكلام عن مقتضى الظاهر الذي ينتظره المخاطب لأشد تقريرا للمعاني وتصويرا مما يقتضي ظاهر الحال لما فيه من اهتزاز نفس المخاطب، ومفاجأة ما يخاطب به عكس ما كان ينتظر وذلك يزيده انتباها لما يلقى اليه وللمعنى تقريرا وتثبيتا.

والحديث الشريف، وهو معدن البلاغة يزخر بهذا الصنيع من أسلوب التصوير والتقرير، وهذه أنواع منه :

1 ــ وضع الضمير موضع الظاهر :

من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال له آخر وصيته :

«يا كعب بن عجرة انه لا يربو لحم بنت من سحت الا كان أولى به[45].

صدقت ياسيدي يارسول الله ولو لم يكن في التحذير من الحرام سوى هذا الحديث لكفى فعلام الرشوة والغش والتطفيف والحصول على الاموال بطرق غير مشروعة انه ظلم.

ومما يزيد الخطاب طلاوة والخبر حلاوة ذلكم السياق النبوي البلاغي اذ أن المألوف أن الضمير يعود على متقدم. نحو الكتاب قرأته لكن اذا ما كان انعكس العكس الامر فان العقل يطدم به أولا فيحاول رده الى ما سبق ان وجد والا فهو يستأنف النظر الى ما بعده. وهذا له ما له من البلاغة والبيان ذلك أن المراد بهذا التصوير والتقرير قد ذكر مرتين مرة على سبيل الابهام بالضمير ومرة أخرى بالاسم الظاهر، والبيان بعد الابهام ادعى الى التصوير والرسوخ نزولا عند قاعدة مفادها : «الشيء كلما تكرر تقرر». وهذا يدل ان دل على شيء من بالغ الأثر وعظيم النفع في حياة المخاطب.

2 ــ وضع الظاهر موضع المضمر :

ــ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ) : «سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[46].

في هذا الحديث الشريف ذكر لفظ الجلالة مرتين وكان مقتضى الظاهر أن يذكر في المرة الثانية بالضمير لسبق مرجعه «سلوا الله» لكنه عليه السلام عدل عن ذلك وأعاده بالظاهر لما فيه، وهو لفظ الجلالة الأقدس، من استحضار عظمة الحق جل وعلا بمجرد النطق به. فاذا عرف العبد الفقير ان الله الغني الذي استحضر عظمته بتكرار اسمه الجليل يُحبُّ من الفقير اليه أن يسأله سارع الى سؤاله ودوام عليه ليكون دائما مشمولا بحبه واذا كان في هذا المقام وأدركنه سعادة هذا الإحساس نأى بجنبه عن سوء الأدب بارتكاب المبعدات.

سادسا : التصوير بالقصر :

للقصر طرق تعد من ضروب التصوير والتقرير للمعاني على وجه أخص وقد أتى القصر في البيان النبوي كثيرا للتصوير والتأكيد مطابقة لما تقتضيه الأحوال وهذا ما نلحظه رأي العين في التصوير التالي :

عن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ) «انما الأعمال بالنيات وانما لكل امريء ما نوى... الحديث» رواه البخاري.

في هذا الخطاب النبوي الشريف في أسلوب البلاغة ما يسمى لدى أهلها بالقصر الذي يفيدُ تخصيص أمر بأمر. وهذا ما وافانا به عليه السلام في الحديث أعلاه ذلك أن صحة الأعمال وقبولها مقصورة على وجود النية فيما يعطى للعمل الاتجاه ان خيرا فخير وان شرا فشر.

فالأعمال والأجسام سيان فكما لا حياة للجسم بدون روح كذلك لا صحة للأعمال بدون نية وأهل البلاغة وضعوا لهذه الغاية أدوات تستعمل ما اقتضى المقام قصر شيء على شيء.

وهكذا يكون عليه السلام نبهنا بأداة القصر الأولى «انما» على أن العمل يتبع النية ويصاحبها، وعلى ذلك يترك الحكم، وبالثانية «لكل امرىء ما نوى» أفادنا أن المرء لا يحصل له الا ما نواه فلا يصح أن أعمل أنا وينوي غيره «لكل امرىء ما نوى».

قال ابن عبد السلام : النية انما تشترط في العبارة التي لا تتميز بنفسها وأما ما يتميز به نفسه فانه ينصرف بصورته الى ما وضع له كالأذكار والأدعية والتلاوة.

والأودات التي تفيد هذا المعنى أشار اليها صاحب الجوهر المكنون في بيت مفاده : **وأدوات القصر الا انما عطف وتقديم كما تقدم**

وهذه الأدوات هي المشهورة لدى أهل البلاغة وهناك أدوات أخرى عندهم لكنها غير مشهورة : ضمير الفصل، وحده، ليس غير، فقط، فحسب...

والرسول (ﷺ) قد استعمل الكل ولك أن تستعمل ما تشاء، وانما لكل امريء ما نوى.

سابعا : التصوير بالفصل والوصل :

الفصل والوصل من الوسائل الأسلوبية لتصوير المعاني ووضوحها لدى البلغاء، وهذا ما يتجلى في الأسباب الموجبة لكل منهما.

فإذا كان الفصل محله كمال الاتصال وشبهه وكمال الانقطاع بين الجملتين، فان الوصل محله التوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وكذا اختلاف نوع الجملتين من خبر وانشاء.

والبيان المحمدي الشريف وهو معدن البلاغة ــ حافل بكلا الأمرين :

1 ــ التصوير النبوي بالفصل :

عن أبي ذر رضي الله قال : قال رسول الله (ﷺ) «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعداء تجأرون الى الله تعالى : لوددت أني شجرة تعضد[47].

2 ــ التصوير النبوي بالوصل :

بالرجوع الى الحديث السابق المروي عن أبي ذر رضي الله نجد، علاوة على التصوير فيه بالفصل، جملا كلها جاءت موصولة بعضها ببعض وذلك لوجود الجهة الجامعة بينهما، انها الجمل الواقعة متوالية جوابا للشرط «لو» حيث قال عليه السلام.... والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش... الحديث السابق.

بهذا الايحاء والارشاد ندرك أن قلة الضحك تستلزم الهم، وأن كثرة البكاء وعدم التلذذ بالنساء، وقد زين للناس حب الشهوات منهن، أشد من كل ذلك، وأنكى، وما هذا الشيء في الجمل المتتالية الا تصوير للمشهد وبعث على الخوف

والرهبة اذا علمنا مثل ما علم عليه السلام.

فداعي الوصل هنا يتجلى في الربط بين الجمل المعبر عنها في البلاغة : «كمال الاتصال» حيث تكون الجملة اللاحقة مرتبطة بالسابقة اما جوابا أو نعتا أو عطفا أو بيانا أو بدلا أو توكيدا وهذا ما يبدو واضحا في الحديث السابق معنا حيث أتت كلها جوابا للشرط والتقدير لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا. ولو تعلمون الخ لما تلذذتم الحديث وهذا هو الربط الذي على ضوئه صور لنا الرسول الكريم الجزاء المختلف عن الفعل المتحد. انه العلم لو كنا نعلم.

علاوة على كون التصوير الخبري أتى مؤكدا، كما لوحظ سابقا لكون ذلك يقتضيه المقام، فان هنا تصويرا بلاغيا نبويا آخر يتجلى في الفصل بين الجمل الموجودة معنا في هذا الحديث ذلك أن قوله عليه السلام «أطت السماء وحق لها أن تئط» كاشفة للمرئي والمسموع في صدر الحديث وواقعة موقع البيان لما سبق «اني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون» كأنه قيل : ماذا ترى وتسمع يا رسول الله ؟ فأجاب عليه السلام مبينا للمرئي والمسموع قائلا : «أطت السماء..... الحديث» فأطيط السماء يقرر السمع، كما أن سجود الملائكة في كل موضع يقرر الرؤية.

كما أنه (ﷺ) نفحنا بتصوير بلاغي آخر كان ادعى الى تقرير المعاني وتوكيدها، ذلك أن البدء بالجمل سابقا مشوق الى البيان، والبيان بالتفصيل لاحقا أوقع في النفس وأغنى الوسائل عن السؤال مرة أخرى علاوة على احكام الربط بين الجمل لعدم تخللها بكلام الغير.

وأخيرا فان قولته عليه السلام «ما في موضع أربع أصابع الا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا». قد انفصلت عن سابقتها انفصال البيان عن المبين فتقررت بها الأولى وتأكد مضمونها.

ثامنا : التصوير بالاشارة

للاشارة والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في النفوس كل ذلك يدل دلالة واضحة على اهتمامه البالغ (ﷺ) بتعليم أمته، وشغل

الحاسة مع العقل وهذه نماذج وهي قليل من كثير ــ في تصوير المعاني وتقريرها في الأذهان.

1ــ عن سهل بن سعد ضَ قال : قال رسول الله صَ «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[48].

2ــ وقال أيضا : «المومن للمومن كالبنيان يشده بعضه بعضا»ثم شبك بين أصابعه[49].

3ــ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول الله (ﷺ) خطا مربعا وخط خطا في الوسط، وخط خطا خارجا منه، وخط خطوطا صغارا الى هذا الخط الذي في الوسط وقال : هذا الانسان وهذا أجله محيط به ــ أوقد أحاط به ــ وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض فان اخطأه هذا نهشه هذا، وان اخطأه هذا نهشه هذا[50].

المطلب الثاني : التصوير بالانشاء :

اذا ما تصفحنا أحاديثه عليه السلام وجدناها أتت في قوالب جمل خبرية تارة. وأخرى بأسلوب الانشاء بنوعيه : الطلبي وغيره وهذه نماذج من ذلك.

أولا : التصوير النبوي بالانشاء الطلبي :

فعل الأمر : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال : «اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم»[51].

بهذا الأسلوب البلاغي وفي هذا الحديث الشريف يبين لنا الرسول عليه السلام عاقبة الظلم ومصير الظالمين، ويعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

لكن الذي يثير الانتباه ويحرك النفوس تلك الصيغ التي تحمل في طياتها التحذير والتنبيه على أن الجزاء من جنس العمل بل أشد وأنكى والله خير الماكرين.

وهكذا فان كان فعل الأمر يفعم منه الوجوب بالأصالة فهناك أغراض

أخرى كالارشاد والنصح والتعجيز تستفاد بالسياق.

والجمل الانشائية الطلبية هي المفتتحة بما يفيد الطلب. وهكذا فان الأمر يفيد طلب الفعل والنهي طلب الترك والاستفهام طلب الفهم والتمني طلب ما فيه مطمع، والنداء طلب الاقبال.

بعد هذا يسهل علينا معرفة الجمل الانشائية الطلبية انها المصورة اما بالأمر أو النهي أو التمني أو الاستفهام أو النداء.

وخلاصة الأمر أن الانشاء الطلبي هو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب.

ثانيا : التصوير النبوي بالانشاء غير الطلبي :

بالرجوع الى أحاديثه عليه السلام نجده يستهلها بألفاظ تبعث على الاثارة والتشويق، وهي أفانين من القول تزيد الكلام حلاوة والمعنى تصويرا وتقريرا. وهكذا نجد الحديث مفتتحا بأداة الاستفتاح أو العرض والاستفهام أو المفاجأة بإبهام يعقبه البيان أو غير ذلك مما يحرك النفوس للتطلع والتشويق، وهذه ألوان أخرى نسوقها لتلك أو هذه الغاية.

1) بدء الحديث باللفظ الدال على التعجب :

عن صهيب رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال : «عجبا لأمر المومن ان أمره كله خير

وليس ذلك لأحد الا المومن، ان اصابته سراء شكر. فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[52].

2) : تقديم الخبر العجيب فتتطلع له الاسماع والانظار لتدرك ما وراءه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) «سبق درهم مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يارسول الله قال كان لرجل درهمان فتصدق بأحدهما وانطلق آخر الى عرض ماله فأخرج منه مائة ألف درهم فتصدق بها».

وهكذا كان عليه السلام يخاطب بكل ما يفهمه كل مخاطب دون سآمة أو ملل حتى يدرك على التو شريعة ربه الغراء السمحة البيضاء بأساليب نبوية بلاغية سلسة عذبة.

والخلاصة : اذا كان الانشاء الطلبي يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء فان الانشاء غير الطلبي ضده ويتجلى في أفعال المدح والدم وألفاظ التعجب والقسم وصيغ العقود والرسول عليه السلام خاطب بكل ذلك فجاء معه التاريخ مصحوبا بالتصوير والتقرير.

ثالثا : التصوير النبوي بالالتفات :

ان الالتفات من الأنواع التي تحدث في النفس حركة الانتباه ليتقرر فيها ما تلتفت اليه تنشيطا وتصويرا وتقريرا. وهو في الكلام كما هو في الأجسام فاذا كان في هذه تحويل الوجه الى جهة أخرى فانه في الكلام العدول عن مقام من المقامات الثلاثة «التكلم والخطاب والغيبة». الى أحد أخويه الاخرين.

وهكذا قد جاء في بيانه الكريم عليه السلام رائيا محكما مثيرا للنشاط النفسي في أماكن يطلب فيها التقرير واسترعاء الانتباه ومن هذا ما يلي : عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله (ﷺ) اذا ركع قال «اللهم لك ركعت وبك آمنت. ولك أسلمت، وعليك توكلت أنت ربي خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي وعظامي لله رب العالمين»[53].

عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله (ﷺ) اذا سجد قال : «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه، وصوره تبارك الله أحسن الخالقين»[54].

عن ابي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : «اذا ولج الرجل الى بيته فليقل : اللهم اني أسألك خير المولج وخير المخرج، باسم الله ولجنا، وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا ثم يسلم على أهله»[55].

في هذا الحديث نجده عليه السلام يرتب الأمور على نسق الوجود فها هو (ﷺ) يبدأ بمناجاة الله، تعالى، بالدعاء حتى اذا كان أدنى الى أهله انتقل

خطوة من الخطاب الى التقرير بالاسم الظاهر «باسم الله» فاذا وصل الى الأهل انتقل عن ذلك اليهم بالسلام وهكذا كان عليه السلام يستعمل الكلام وفق ما يقتضيه المقام.

رابعا : التصوير بأسلوب الحكيم :

أسلوب الحكيم هو اجابة السائل بغير ما يترقب تنبيها على أن المجاب به هو أولى بالاهتمام وقد جاء في الحديث الشريف :

عن بهيسة الفزارية رضي الله عنه قالت : «استأذن أبي النبي (ﷺ) فدخل بينه وبين قميصه فجعل يقبله ويلتزم، ثم قال : «يارسول الله حدثني ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال : الماء : ثم قال : ما الشيء الذي يحل منعه قال : الملح، ثم قال ثم ماذا قال : النار : ثم قال : يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال أن تفعل الخير خير لك»[56].

ما أروعه من خطاب وما أجمله من جواب «أن تفعل الخير خير لك» هذا الضرب من البلاغة ألطف في الرد، وأكرم للمخاطب كما أنه أدل على ذوق المجيب، اذ يحمل المخاطب على الرجوع الى نفسه، ومقارنة السؤال والجواب، فيدرك أن السؤال المقدر كان هو الأجدر والأولى من سؤاله. وكأنه يقول للمخاطب «ينبغي أن يكون سؤالك ممهدا لهذا الجواب». وفي القرآن الكريم ما يعضد هذا قال تعالى : خطابا للنبي عليه السلام. ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾. فسؤالهم كان حول الاهلة كيف تبدو صغيرة ثم تكبر وهكذا عند بداية كل شهر ونهايته لكن الرسول الحكيم الكريم أجابهم بما ينبغي السؤال عليه شأن كل من لا يدرك الكنه البعيد للجواب والرسول عليه السلام مأمور أن يبلغ ما فيه يسر «يسروا ولا تعسروا» وبما يفهمه الناس ولله در القائل :

فخاطب الناس على قدر العقول فليس شأو المبتدي شأو الفحول

خامسا : التصوير بالايجاز :

حد ابن سنان الايجاز المحمود بقوله : «هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ.

والرسول (ﷺ) قد خصه الله عز وجل بأفضل البيان لتبليغ دعوته وهكذا كان الايجاز خصيصة لبيانه عليه السلام، فكان أسرع الى فهم الفاهمين وضبط الضابطين، والبلاغة النبوية كثير فيها هذا النوع من الكلم الجامع الذي هو حكمة البلاغة، وهذا ما نلحظه رأى العين ــ وهو قليل من كثير ــ في الأحاديث النبوية الشريفة الآتية :

قال عليه الصلاة والسلام :

انما الأعمال بالنيات : (اخرجه البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي والترمذي وابن ماجة)

ــ الدين النصيحة : (أخرجه البخاري في التاريخ)

ــ الحلال بين والحرام بين : اخرجه البخاري ومسلم والترمذي

ــ أن تعبد الله كأنك تراه : (أخرجه البخاري).

ــ آفة العلم النسيان : (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في الجامع)

ــ المرء مع من أحب : (أخرجه البخاري ومسلم والامام أحمد والترمذي والنسائي وأبو داوود).

ــ الصبر عند الصدمة الأولى : (أخرجه البزار وأبو يعلى)

ــ ان من البيان لسحرا : (أخرجه الامام أحمد في مسنده)

ــ نية المرء خير من عمله : (للبيهقي في شعب الايمان).

الى غير ذلك مما لا يحصيه العد من كلامه مما لو ذهبنا نشرحه لتطلب كل كلمة مقالا، وخير دليل على ذلك المقالات والمجلات، والمجلدات التي يتناولها بأقلامهم شراح الحديث والوعاظ، وأضرابهم من الكتاب جاعلين موضوعها جملة أو حديثا من بيانه الكريم، وأحسن ما يستدل به في هذا الموضوع تلك الكلمة الخالدة للعقاد في هذا الصدد مفادها : «الابلاغ أقوى الابلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات».

وهو في البيان النبوي، كما نجده لدى أهل البلاغة قسمان ايجاز قصر وايجاز حذف.

1 ــ **ايجاز القصر** : وهو ما تزيد فيه المعاني على الالفاظ الدالة عليها بلا حذف، وللقرآن الكريم فيه المنزلة التي لا تسامى والغاية التي لا تدرك قال تعالى : ﴿خذ العفو وامر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾[57]. وقال : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[58] ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[59]. الى غير ذلك مما احتوى عليه القرآن الكريم حيث تحيط الكلمتان أو الثلاثة بجميع الأشياء على غاية الاستقصاء والذي جاء بالصدق عليه السلام قد ترك القرآن فيه بصماته بتصويره وتعبيره فجاء أسلوبه النبوي الشريف أشد الأساليب البشرية اختصارا وأكثرها استيعابا ومن تصويره بالايجاز عليه السلام قوله :

اللهم إني أحمدك على العرق الساكن والليل النائم».

فما أقل الألفاظ وأكثر ما احتوت عليه من المعاني اذ لا سكون للعرق مع العلل لأن الجسم اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وانما يسكن العرق عند وفور الصحة واعتدال المزاج. كما أنه لا نوم لليل مع الهموم والأحزان وانما ينام الليل اذا ما لفه الأمن وغمرته السعادة، نتيجة الرضا بالقدر والتسليم بالقضاء.

ان معنى هذا الحديث الشريف يشرح قيمته أيضا قوله عليه السلام «من بات منكم آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

فالمتأمل في هذا الحديث يرى العبارة القصيرة وما أوسع دلالتها والألفاظ الضيقة وما أكثر ما احتوت عليه.

2 ــ **ايجاز الحذف** : ويكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف. من ذلك قوله عليه السلام :

«لا تحل الصدقة لمحمد ولا لآل محمد»[60] والمراد لا يحل أخذها أو تناولها.

ان هذين حرام على ذكور أ متى حل لإناثها»[61]والمراد ان استعمال أو لبس هذين...

«اللهم ان ابراهيم قد حرم مكة واني حرمت المدينة» والمراد اللهم ان ابراهيم حرم صيد مكة واني حرمت صيد المدينة[62].

فالتصوير النبوي الشريف بهذا الحذف علاوة على الايجاز أوقع في النفس وأجدى تأثيرا لما في ذلك من افادة العموم مع الحذف. ألا ترى قوله عليه السلام : «اللهم ان ابراهيم حرم مكة» فانه يفيد تحريم الصيد وغيره من التعرض للصيد وقطع الأشجار وغير ذلك مما يمس حرم المكة وما استفيد ذلك العموم الا مع الحذف صلى الله عليك وسلم يا أفصح من نطق بالضاد.

سادسا : التصوير بصيغة الاغراء أو التحذير :

لتقديم صيغة الاغراء أو التحذير بالغ الأثر ذلك أن السامع اذا طرقت سمعه «اياكم أو عليكم» انتفض من شواغله وألقى انتباهه وبخاصة اذا كان الناصح أمينا.

عن أبي سعد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله (ﷺ) : «اياكم والجلوس في الطرقات» قالوا يارسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها فقال : «اذا أبيتم الا المجلس فأعطوا الطريق حقه» قالوا وما حقه يا رسول الله؟ قال : غض البصر وكف الأذى. ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[63].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله (ﷺ) : «اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله اخوانا»[64].

التصوير بالوعد :

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : «طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع[65].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : «نضَّر

الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع»[66].

التصوير بالوعيد :

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قال رسول الله (ﷺ) : «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب، ويل له ويل له»[67].

IV — : التصوير النبوي بأساليب من البديع

التصوير بالوزن البديعي يحافظ على الأبعاد في تنظيم النطق ويجعل المسموع كالمرسوم، وذلك يعطي النصوص قيمة يكون لها في النفوس بالغ الأثر، وبخاصة إذا ما بقيت معه المعاني على سجيتها وأوتي بحلل من الألفاظ تليق بها تحسينا وتجميلا، أما وأن يؤتى بألفاظ متكلفة مصنوعة، ودون أن تفي بالمعاني المقصودة، فلا بدع أن هذا لا يعد من فن البديع.

بعد هذا فإني أعرج على بعض الألوان الواردة في النصوص النبوية الكريمة فِطرة.

وإذا كان التحسين في هذا الفن تتجلى به الألفاظ تارة، والمعاني أخرى فيكون محط التصوير النبوي لهذا المبحث في الفقرتين الآتيتين :

أولا : المحسنات اللفظية :

للرسول (ﷺ) النصيب الأوفر في هذه الألوان من المحسنات بل انه يعتبر معدنها مما جعل العباقرة من المتقدمين والمتأخرين يستقون مؤلفاتهم بالأمثلة من أحاديثه عليه السلام للاستشهاد بها في هذا الميدان.

وهكذا وحتى لا أطيل فإني سأمس هذه الألوان مسا وأحييها ولو بالاشارة من بعيد حتى لا يكون بحثي هذا موصوفا بالطول الممل ولا بالقصر المخل وهذه نماذج من ذلك :

أ ــ الجناس :

اذا كان الجناس في مذهب كثير من أهل الأدب غير محبوب على اعتبار

أنه يؤدي الى التعقيد، ويحول بين البليغ، وبين اطلاق عنانه في مضمار المعاني الا ما جاء منه عفوا. فانه في التصوير النبوي الشريف سمح به الطبع وجاء من غير تكلف منه عليه السلام وهذا ما سنراه في الأحاديث النبوية الآتية :

من حديثه عليه السلام : «عصية عصت الله ورسوله، وغفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله»[68] وهذا ما يعبر عليه بالجناس **المطلق أو التام** حيث اللَّفظان يتحدان في الحروف والشكل والترتيب والعدد ويختلفان في المعنى.

ـــ وقال (ﷺ) «الظلم ظلمات يوم القيامة»[69] (ويسمى الجناس المشتق).

ـــ وقال (ﷺ) :«لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويتحلى بما لا يغنيه»[70] (ويسمى الجناس المصحَّف)

ـــ وقال (ﷺ) : «الخيل معقود بنواصيها الخير». [71] (ويسمى الجناس الناقص).

وبعض أهل البلاغة يعتبر مالم تتوفر فيه شروط الجناس المطلق أو التام ناقصا.

ب ـــ **السجع** : مثل ابن الأثير للسجع من البيان النبوي بحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) أنه قال : «استحيوا من الله حق الحياء قلنا : انا لنستحي من الله يا رسول الله : قال : ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظالرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى ومن أراد الاخرة ترك زينة الحياة الدنيا.[72]

والسجع : هو توافق الفاصلين من النثر على حرف واحد. كقول الشاعر أبي الطيب المتنبي :

فنحن في جدل، والروح في وجل والبر في شغل والبحر في خجل

ج ـــ **التلفيف** :

سئل عليه السلام عن البحر فقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته[73]

فالسؤال منصب على الماء هل يصح للطهارة أم لا؟ فلف مع معنى الجواب معنى آخر.

د ــ التعلل :

قال (ﷺ) : «لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك عند كل صلاة»[74].

هـ ــ التوشيح :

وقد جاء من ذلك في السنة ما لا يلحق بلاغة قال (ﷺ) «يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل»

و ــ سلامة الاختراع من الاتباع :

ومن البيان الكريم حمى الوطيس ــ مات حتف أنفه ــ لا يلدغ المومن من حجر مرتين ــ السعيد من وعظ بغيره ــ وهناك أشياء كثيرة مما اخترعه النبي (ﷺ) ولم يتبع فيه الى الآن.

ز ــ تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال (ﷺ) : أنا أفصح العرب بيد أني من قريش». ومنه قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى على المال باقيا

ثانيا : المحسنات المعنوية :

اذا كان التحسين فيما سبق يكسو ظاهر الألفاظ فانه هذه المرة تتحلى به معانيها، هذا ما نلحظه رأى العين في النماذج الآتية :

أ ــ الطباق :

ــ قال (ﷺ) : «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» فهو يعني عليه السلام أن خير المال عين ماء ينام صاحبها، وهي تظل فائضة تسقي له أرضه والطباق لدى أهل البلاغة : الجمع بين الشيء وضده.. وهو نوعان :

ـــ طباق الايجاب : وهو ما لم يختلف فيه الضدان ايجابا وسلبا. كما في الحديث أعلاه.

ـــ وطباق السلب : وهو ما اختلف فيه الضدان ايجابا وسلبا نحو قوله تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾

ب ـــ **المقابلة** :

قال (ﷺ) للانصار : «انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» في هذا الحديث النبوي نجده عليه السلام بين صفتين من صفات الأنصار في صدر الكلام وهما الكثرة والفزع ثم قابل ذلك في آخر الكلام بالقلة والطمع على الترتيب، وهذه هي المقابلة : حيث يؤتى فيها بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ومنها قوله عليه السلام لعائشة : «عليك بالرفق يا عائشة فانه ما كان في شيء الا زانه، ولا نزع من الشيء الا شانه» وكتاب ربنا زاخر بهذا اللون وغيره من ألوان البلاغة قال تعالى: ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾[76].

والسجع في البيان النبوي مجلوب بطبيعة نفسه ودون تكلف أو عناء وهكذا نجد البلاغيين والنقاد ما يزالون يلهجون ببراعة السجع لخفته حتى إن بعضهم سأل مستفهما قائلا : ما أحسن السجع ؟ فأجيب ما خف عن السمع فقال : مثل ماذا ؟ فأجيب مثل هذا

ج ـــ **المناسبة التامة** : ويؤتى بها ولو مخالفة القياس لمكان المناسبة اللفظية التامة، ومن ذلك : قول الرسول (ﷺ) مما كان يرقي به الحسن والحسين عليهما السلام «أعيد كما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» فقوله عليه السلام : «لامة» دون ملمة وهي القياس للمناسبة اللفظية التامة. ومثله قوله عليه السلام : «ارجعن مأزورات غير مأجورات»[77] والمستعمل موزورات لأنه من الوزير غير مهموز فالتلفظ به مهمُوزا للمناسبة اللفظية التامة وهذا من فصاحته العجيبة عليه السلام.

د ــ **الفرائد** :

وقد ورد في السنة النبوية الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام في مواضع شريفة منها قوله عليه السلام : «استذكروا القرآن. فانه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم من عقالها»[78]. فلفظتا استذكروا وتفصيا تذهل عقل السامع فصاحة وتروعه جزالة وحلاوة.

وكذلك قوله عليه السلام : «اذا ذكر الصالحون فحي هلا بعمر»[79] فإن لفظة «حي هلا» من الفرائد العجيبة بل فيها من الفصاحة ما يعجز عن مثله كل فصيح.

خاتمة :

ان الحديث النبوي الشريف له من كل ما سبق ما جعلنا ندرك في قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الذكر اليك لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[80]. حيث يأتي تارة بقولة لمسة ريشة خافتة وأخرى تحمل في طياتها أسلوب التقريع والوعيد وحينا يستعمل الاشارة للبيان وأخرى يكونُ متكئا ويجلس لما في الأمر من خطورة. هذه الأساليب والوسائل لها تأثير في البيان ووقع في النفوس وكيف لا وهو من هو (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهوى كان يعامل المخاطب بالكلام معاملة الطبيب للمريض حيث لا خروج عن المراد ولا ولوج لغير داع، وانما لكل مقام مقال ولكل سؤال جواب، ولكل حال حال. وهذا لا يفي به الا المتضلع بلاغة وفصاحة وبيانا.

أجل ذلك وذاك تجمع في ذلكم الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام الذي قال متحدثا بالنعمة «أنا أفصح من نطق بالضاد».

الهوامش

(1) سورة النحل آية 44.
(2) سورة التوبة الآية : 33.
(3) سورة الشعراء الآية : 195.
(4) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ص : 175.
(5) سورةالاسراء الآية : 88.
(6) سورة يونس الآية : 38.
(7) سورة البقرة الآية : 23.
(8) سورة ابراهيم : الآية : 26.
(9) سورة العنكبوت الآية : 45.
(10) سورة مريم الآية : 4.
(11) سورة البقرة : الآية : 179.
(12) سورة الأعراف الآية : 199.
(13) سورة الرعد الآية : 2.
(14) سورة النحل الآية : 44.
(15) سورة مريم الآية : 98.
(16) سورة آل عمران الآية : 164.
(17) سورة الشعراء الآية : 195.
(18) سورة الضحى الآية : 7.
(19) سورة الطور الآية : 48.
(20) سورة النمل الآية : 65.
(21) سورة النحل الآية : 44.
(22) المجموعة النجدية : 310 من كتاب الكبائر.
(23) تيسير الوصول : 1 / 49.
(24) أخرجه الامام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن عمر.
(25) أخرجه البخاري عن ابن عمر.
(26) تيسير الوصول 3 / 24.
(27) أخرجه البيهقي في شعب الايمان.
(28) الحديث رواه البخاري عن أبي مومن الأشعري.
(29) سورة البقرة الآية 261.
(30) الحديث أورده الشريف الرضي في المجازات النبوية ص : 133.
(31) سورة التحريم الآية : 6.
(32) رواه البخاري.
(33) متفق عليه.

(34) أخرجه البخاري ومسلم.
(35) سورة الاسراء الآية : 70.
(36) المجازات النبوية (الشريف الرضي) ص. 79.
(37) أخرجه الترمذي. انظر تيسير الوصول 2 / 111 ــ112
(38) أخرجه الامام أحمد في مسنده، والامام مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة.
(39) تيسير الوصول 1 / 35.
(40) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عمر.
(41) أخرجه ابن ماجة وابن حبان والحاكم والبيهقي.
(42) سورة الأنفال الآية : 2.
(43) سورة المائدة الآية 85.
(44) سورة الأعراف الآية : 204.
(45) تيسير الوصول بلفظ الترمذي : 2 / 28.
(46) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود.
(47) تيسير الوصول ج 2 ص 25.
(48) أخرجه الامام أحمد والبخاري وأبو داوود والترمذي.
(49) المجموعة النجدية ص 310 من كتاب ــ الكبائر.
(50) تيسير الوصول ج 1 ص 43.
(51) أخرجه البخاري والترميذي والطبري عن ابن عمر.
(52) أخرجه الامام أحمد في مسنده عن صهيب.
(53) تيسير الوصول : 2 / 66.
(54) تيسير الوصول : 2 / 66.
(55) تيسير الوصول : 2 / 72.
(56) أخرجه الترمذي.
(57) سورة الأعراف 199.
(58) سورة الأعراف الآية 54.
(59) سورةالبقرية الآية 179.
(60) أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس.
(61) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : علي السيد : ص : 304.
(62) أخرجه مسلم في كتاب : الحج.
(63) أخرجه أبو داود والبخاري ومسلم عن أبي سعد.
(64) أخرجه الامام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود.
(65) أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم.
(66) تيسير الوصول 3 / 154.
(67) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم.
(68) تحرير التحبير : 1 / 99.
(69) نفس المرجع.
(70) نفس المرجع : 1 / 105.

(71) نفس المرجع : 1 / 106.
(72) أخرجه الامام أحمد والترمذي والحاكم البيهقي.
(73) رواه الخمسة وقال الترمذي حسن صحيح.
(74) تحرير التحبير 3 / 309.
(75) تحرير التحبير 3 / 343.
(76) سورة التوبة الآية : 82.
(77) أخرجه ابن ماجة عن علي، وأبو يعلى.
(78) أخرجه البخاري ومسلم والامام أحمد والنسائي عن ابن مسغود.
(79) أخرجه الامام أحمد.
(80) سورة النحل الآية : 44.